الباب الثانى

نفسية الطفل

علم نفس الطفل هو أهم نواحى العلوم النفسية . ومن الغريب أن نجد جل الشعوب ومعظم طلاب هذا العلم أقل اهتماماً به ، بل وكثيرا مالا يعنون بدراسته إطلاقا ، مع أنه أحق العلوم النفسية بالبحث والدراسة ، لأننا بدراسته نستطيع إعداد الأطفال — وهم رجال وسيدات المستقبل — إعداداً صحيحا ، بعيداً عن التعرض للأمراض النفسية والعصبية التى ذاعت وانتشرت فى هذه الأيام بحكم التطور الاجتماعى ، وبحكم فروض المدنية ، التى تتناقض مع فروض وميول العهود الغابرة . . والتى سوف تعم وتنتشر وتزداد شيوعا ، إذا لم يتداركها الأهلون والمدارس بالعناية الكافية بالتربية النفسية للطفل من بدء نشأته ، وجعل التربية النفسية أساس المناهج فى رياض الأطفال ، وفى المدارس الابتدائية . فيوكل إلى إخصائيين فى علم النفس ، وضع ومراجعة مناهج التعليم فى أدواره الأولية ، حتى تأتى متفقة تمام الاتفاق مع الغرض المنشود من وراء إعداد نشء صالح وسليم . . وإلى أن تتخذ المدارس هذه الخطوة ، فسيظل الطفل معرضاً للمتاعب النفسية والأمراض العصبية ، التى تحول بينه وبين مستقبل قوى .

ونستطيع فوق ذلك ، بدراسة علم نفس الطفل أن نعرف ما يجب أن نبحث عنه فى الكبار الشاكين من الاضطرابات العصبية أو العلل

النفسية . ذلك لأن العقد النفسية تنشأ فى الإنسان من الطفولة ، وليس للعوامل التى تصادف الإنسان بعد مرحلة الطفولة من أثر هام أو فعال فى حياته ، وإن تركت أى أثر فى حياة الإنسان ، فهـذا الأثر يزول بزوال الظروف التى أوجدته أو بحل المشكلة التى نشأت ، فأرجو من القارئ أن يولى هذا الباب العناية اللائقة به .

إن أهم ما يعنينا إزاء دراسة نفسية الطفل ، هو أن نذكر أن الطفل ليس بالشاب أو الرجل ، وليس هو بالشابة أو السيدة حتى نعامله أو نحكم عليه حكمنا على الكبار والبالغين ؛ فالطفل ينفرد بقوانين وطبيعة ومدارك خاصة غير تلك التى يخضع لها الكبير أو يمتاز بها ، وله شخصية ونفسية قائمة بذاتها ، وعلينا أن نقوم بدراسة الطفل على هـذا الأساس محاولين فهم عقليته ووعيه ومداركه الخاصـة ، وإدراك نوع نزعه وتفاعلاته العاطفية ومراحل نموه العقلى .

مراحل نمو الطفل

يمر الطفل وهو فى طريق النمو الإدراكى والعقلى بجميع مراحـل السلالة البشرية ، وهذا هو مفتاح السر الذى يوصلنا إلى فهم الطفل فهماً صحيحاً .

فلو أننا نظرنا إلى الطفل بغير تلك النظرة التى تعتبر الطفل صـورة مصغرة لأبيه أو أمه ، فنظرنا إليه كثمرة تحمل بين طياتها عناصر التطور والاجتماعى فى جميع مراحله المختلفة ، وأن هـذا الطفل يعيد ، وهو فى

طريق النمو ، تاريخ أجداده الأقدمين من حيث العادات والصفات والغرائز ، لكننا أكثر صبرا ، وأوسع صدرا على احتمال سلوكه وتصرفاته الفاضحة ، ولكننا أكثر تسامحاً وأعظم استعداداً لتوجيهه توجيهاً سليما بعد أن نعذره فيما يبدو منه .

مراحل البشرية

سواء قبلت نظرية النشوء والارتقاء ، وهي نظرية انحدار الإنسان من طبقة الحياة الدنيا ، وقد أصبحت نظرية مسلم بها من جميع الطبقات المثقفة ، أو كنت متمسكا بحرفية قصة التكوين وبدء الخليقة كما جاءت في الكتب الدينية ، فإنه يتحتم عليك أن تذكر أن الإنسان الأولى (الفطرى) كان أشبه بالحيوان ، فقد كان مخلوقا بريا ووحشيا أكثر مما كان آدميا بشريا . كان مخلوقا يحيا حياة قاسية ، ويعيش عيشة خشنة مجردة من كل معاني الراحة والرفاهية والنظافة والنظام التى نعرفها الآن ؛ فسكان يسكن المغاور والكهوف كما كانت ولازالت تسكنها الوحوش والحيوانات البرية . وكان يجوب الأرض هائما على وجهه ، دائم الشجار والنضال والنزاع مع جميع هيئات الحياة أو جميع الكائنات ، ولا هم له سوى المحافظة على حياته والحصول على حاجاته وتحقيق غاياته بكل ما يستطيع من وسائل ، بغض النظر عن حاجات الغير ، فما كان يعنيه شيء في الوجود غير نفسه ، فعاش أنانياً مستعينا على قضاء حاجاته وتأمين حياته بأعنف الوسائل الوحشية من ضرب وقتل وخطف .

ثم جاءت بعد ذلك مرحلة تميزت بشيء من التقدم الإنساني ، تنحى فيها الإنسان عن الحياة الفردية وأخذ في غرس أول نواة اجتماعية ؛ فبدأ في إنشاء حياة اجتماعية مشتركة تتبادل فيها الحماية وتتكاتف الجهود . ولكن ظل الإنسان كما كان وحشي الطباع أناني النزعة متعطشا للدماء ، وكان القانون الوحيد السائد في هـذا الزمن هو قانون . الرغبة والقوة . فكان الإنسان يعتمد على القوة في تحقيق حاجاته وأغراضه ؛ فإذا كان قوياً جبارا فاز بما آر به عنوة وقسرا ، وسخر الآخرين في خدمته ، وفرض عليهم زعامته .

ويبدو أن الإنسان ظل قرونا عديدة ، وهو شبه رحالة لا يستقر في مكان واحد ولا يهتم باحراز شيء من الموجودات أو اقتناء منقولات أو ممتلكات . إلى أن جاء دور الاستقرار فاستنبط الزراعة والفلاحة ، وبدأ في وضع يده على الأرض التي يخدمها أو يقيم فيها ، واعتبارها ملكا حلالاً عزيزاً عليه ، محرما على الغير مشاركته فيها أو انتزاعها منه ، وأخذ الإنسان في تلك المرحلة في إقامة مساكن بسيطة يأوي عليها في الليل ويحتمي فيها من الوحوش المفترسة ، ويلجأ إليها في أوقات القيظ أو البرد الشديد ، ثم أخذ يتدرج في اقتناء بعض اللوازم والحاجات وتربية الدواجن والحيوانات الأليفة ، وكان يحافظ على كل ما يقتنى ويجمع محافظته على حياته نفسها ، والويل كل الويل لمن يحاول اغتصابها منه .

ثم جاء بعد ذلك دور ملموس من أدوار التطور والرقي الاجتماعي ، وهو دور تميز بزيادة الألفة و إنشاء الروابط ، فاتخذ الرجل لنفسه رفيقة

كون معها عائلة قائمة بذاتها ، وكان اهتمام الرجل فى البداية منحصرا فى هذه العائلة دون غيرها ، فكان لا يعنيه سوى أولاده هو وتلك التى أنجبت له هؤلاء الأولاد ؛ فلا يجتمع بسواهم ولا يتحدث إلى غيرهم ، طالما ليس هنالك ما يدعو إلى ملاقاة الغير أو التحدث إليه . ثم أخذت الروابط تمتد شيئاً فشيئا إلى أن شملت العشيرة والقبيلة فالشعب .

وكانت العلاقة بين الرجل وامرأته فى هذه المرحلة مجردة من معنى الحب أو العاطفة ، ولا تتعدى مجرد رابطة مؤقتة تدرجت بعدها إلى زواج عرفى خال من القيود ، يجوز فيه اتخاذ أكثر من زوجة واحدة . وانتهى أخيراً بالاكتفاء بزوجة واحدة .

وكانت الزوجة بمثابة جارية للرجل . وملكاله . وكان يعاملها معاملة حيوان أليف ثقيل الحمل كثير التكاليف .

ثم تدرجت بعد ذلك العلاقة بين الرجل وزوجته حتى وصلت إلى ود فعطف فحب خيالى ، فكان الرجل يتقرب من زوجته ويتودد إليها ، ويحسن معاشرتها ويعاملها برفق ولين ومحبة قوية ، ويغار عليها غيرة شديدة ، ويبذل الجهود فى إرضائها .

ثم جاء بعد ذلك دور تحول الإنسان عن حصر اهتمامه فى دائرة نفسه وأفراد عائلته ، فامتد اهتمامه إلى دوائر المجتمع وأخذ يعنى بأمور الغير ، ويفكر فى خدمة الآخرين وتوسيع العلاقات وتبادل المحبة والزيارات وإقامة قواعد اجتماعية ونظم أخلاقية ومثل عليا .

مرحلة الأنانيـة

ولما كان الطفل هو الثمرة الأخيرة الجامعة لصفات كل البذور التى غرست فى نفوس البشرية من بدء وجودها ، والخلاصـة المركزة لمجموع تطورات الحياة الآدمية . فقد كان لابد له من عرض صفات وعادات وغرائز كل دور ومرحلة مرت بها البشرية . ولا بد أن يمر الطفل بجميع هذه المراحل حتى ينتهى عند المرحلة الختامية التى انتهى إليها التطور الإنسانى .

ولذا كانت أولى استعراضات الطفل هى استعراضات الأنانية التى امتاز بها أناس المرحلة الأولى . . وهنا نجد الطفل أنانياً صرفا ، يريد كل شىء لنفسه ويحب كل شىء يعجبه هو ، ويتعلق بالأشخاص الذين ينفذون له مطالبه ويجيبون دعوة أنانيته . أما هؤلاء الذين لا يسيرون صراخه التفاتا ولا يناولونه ما يشير إليه ولا يداعبونه ويلاطفونه ، فهو يرغب عنهم ولا يميل إليهم . بل وكثيراً مايترتب شعور الحقد والكراهية فى نفس الطفل ضد الأشخاص أو الشخص الذى يكرر مقاومة مطالبه . ويشب ويكبر وهو يحمل فى نفسه دافع الكراهية لكل من يمثل الشخصية التى حرمته فى الصغر من نيل مطالبه ولم تستجب لأنانيته .

وكثيراً ما تتوهم الأم محبة طفلها لها وتفخر وتعتز بشدة تعلقه بها ، وهى لا تدرى أن ما تتوهمه وتزعمه هو زعم باطل ، وأن الطفل لا يهتم بأمه ألا لأنه يحب نفسه ولأن الأم هى له واسطة لغاية ، فهى التى تحقق رغبته وتهتم لرضائه وتسعى لتسليته وتعمل على إشباع غريزة الأنانيـة . . ولو

فرضنا أن نفس هذه الأم المحبة بحب طفلها لما كانت قد وكلت أمر تربيته والعناية به إلى مرضعة ومربية لما وجدت من نفس هذا الطفل أى التفات لها أو اهتمام بها ، فالطفل يميل ويحب من ييسر له سبيل الوصول إلى رغائبه .

فهذه المرحلة هى مرحلة طبيعية تتمثل فيها نزعات الإنسان الأولى . وليس من لوم على الطفل من أجلها ولا غرابة فيها ، فهو من بذرة لم ينقرض نوعها .

وما يعنينا فى هذه المرحلة هو أن نعمل على أن يخرج الطفل منها بسلام ، فلا نكبت فيه هذه الغريزة بالقسوة والمبالغة فى حرمانه مما يتطلع إليه ، وبالرفض المستمر لاستجابة مطالبه ، ولا بتلبية طلباته لمجرد أول إشارة تبدر منه . ويجب بصفة خاصة أن نحجم عن تحقيق مطالبه إذا ما عمد إلى الصراخ والعويل أو التغضب لإجبارنا على تحقيقها له ، بل يجب أن نكون لبقين فى التصرف معه ، فنعد له تسليته ومطالبه الضرورية بحيث لا نترك له مجالا للمطالبة والصراخ .

وبالإجمال يجب أن نكون حكماء فى تصرفاتنا معه إزاء هذه الغريزة التى تتطلب التقويم ، مع مراعاة أن لا تكون تصرفاتنا على طرفى نقيض ، حتى لا يشب الطفل والغريزة باقية . فالمأساة الوحيدة فى هذه المرحلة هى فى ثباته عليها وعدم تخطيها ، وهى مأساة كثيرا ما تحدث إذ يظل الطفل ثابتاً فى نفس المرحلة حتى يكبر ويشيخ وكل اهتمامه ونشاطه محصور فى ذاته ، يزعجه وينفره أى شىء خارج عن نطاق نفسه ، لا يهمه سوى

ما يلذ و يطيب له و ينفعه هو ، يستحل لنفسه كل شيء و يحرمه على الغير ، يسعى لتحقيق مطالبه بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، و بذا يظل الطفل طفلاً فى سن الأربعين والخمسين .

مرحلة الهمجية

ينتقل الطفل بعد ذلك من مرحلة الأنانية السابقة إلى مرحلة الهمجية . فيعرض الطفل ، وعلى الأخص الولد ، دور الوحشية التى كانت من مميزات الإنسان الفطرى بعد أن كبر ونما . . فينمو الطفل وتنمو معه غريزة الاعتداء والمهاجمة التعسفية ، مع احتفاظه بغريزة الأنانية ، فهو لا زال يمثل الإنسان البرى الأول ، ولكنه هنا يمثله عندما كان أكبر من طفل قادر على إبراز صفات الهمجية .

وهنا نرى الطفل عنيداً لا يخضع لآمر ولا يستمع لناهٍ ، يقاوم المنع والتحريم ، يفترش الأرض ويحلو له التمرغ فى الأتربة والخوض فى الأوحال ، يعتدى على الآخرين ، ويحاول إيقاع الأذى بهم ، ويقذف المارة بالطوب والحصى ، ويكسر زجاج النوافذ ، ويتلف كل ما تصل إليه يده . . يعذب القطط والكلاب ، ويربط فى ذيولها ورقابها الأثقال ، يدبر المكايد ويعد الأشراك ، وما إلى ذلك من الأمور المعبرة عن صفات الغريزة الأصلية ، وهى أمور لا تدعو للانزعاج ، ولا غرابة فيها ولا شذوذ ، وما الشذوذ إلا فيمن لا يمر بمثل هذه المرحلة ويقوم بتمثيل دور أجداده وأسلافه . . وليس علينا سوى ترقب هذه المرحلة من كل طفل والعمل

بلباقة وكياسة على تحويل نشاط هذه الغريزة إلى النواحى التى تتفق مع مستوى المدنية التى وصلنا إليها .

أما إذا قابلنا هـذه النزعات بالعقاب والضرب والعنف والزجر والمنع والتحريم ، فإننا نكون عاملين على تقوية الغريزة الأصلية وزيادة همجية الطفل .

وما معنى الضرب والعنف وإنزال العقاب الصارم بمخلوق يكشف عما ورثه عن الأجداد والسلف ، ويظهر لنا عاداتهم وغرائزهم ؟ وما ذنب هذا الطفل وهو لم يأت بجديد من عنده ؟

إذا كانت هذه الأخلاق والتصرفات التى نراها منه لا تحوز قبولنا ولا ترضينا ، لأنها لا تتمشى مع حضارة هـذا العصر ، فعلينا تهذيبها وتقويمها بكل ما نستطيع من وسائل مجدية وحكيمة .

أما إذا نحن قابلنا الهمجية بالهمجية ، فأى علاج قدمنا ؟

مرحلة الألفة

ينتقل الطفل بعد ذلك إلى مرحلة الألفة والروابط العائلية ، فيتحول اهتمام الطفل عن نفسه إلى أفراد العائلة المعاشرين له ، وهو فى هذه المرحلة يعرض علينا أول أدوار التطور الاجتماعى فى حياة الإنسان الفطرى حيث خرج من عزلته ووحدته إلى اتخاذ قرينة تكون معها عائلة له .

وهنا يتحول الطفل من أنانى لا يحب غير نفسه إلى محب لأمه وأقرب الناس إليه .

وفى أواخر هذه المرحلة ، تمتد محبة الطفل فتشمل أقرانه الذين هم من جنسه ، ولكنه يحتفظ أيضاً فى هذه المرحلة بشىء من نزعة العداء والخصام والشجار التى كانت من مميزات المرحلة السابقة ، إذ أن الإنسان ينتقل من مرحلة إلى مرحلة ، ولا يزال متأثراً بعناصر المرحلة التى سبقتها حتى تأخذ فى التلاشى شيئاً فشيئا .

وفى هذه المرحلة يتمثل ماتبقى من آثار نزعة العداء فى خصومة الطفل ومعاداته للجنس المضاد ؛ فيحقد الولد على البنت وينظر لها نظرة استخفاف أو نظرته إلى شىء تافه وضعيف ومخلوق لا يصلح إلا للتدليل أو المداعبة ، ويعتبرها عالة على الإنسانية ، بينما تنظر البنت إلى الولد نظرة قاسية ، فهو فى نظرها مخلوق فظ وشرس وقذر ، لا يصلح إلا للمشاجرة ومضايقة الناس والافتراء عليهم .

وفى هذه المرحلة تنحصر الميول الجنسية ، بحكم قصور الألفة والمصاحبة على نفس الجنس ، فى محبة الطفل لجنسه ، فينشأ اللواط بين الذكور والسحاق بين الإناث . لأن الدافع الجنسى لا يجد أمامه منفذاً إلا فى هذه الناحية .

وهذه مرحلة بريئة لايدرك فيها الطفل شيئا عن نزعته ، ولا يعى معنى ماقد يصدر منه من حركات تنم عن مبعث النزعة ، فهو يأتى حركاته واحتكاكاته والتصاقاته عن غير قصد أو انتباه ، ولا يدرك مطلقاً ماذا يفعل .

وفى نفس هذه المرحلة يتركز اهتمام الطفل فى الصحبة (الشلة) التى يختارها ويندمج معها وينسجم ، فلا يصغى ولا يهتم ولا يتصرف إلا بما

يرضى الصحبة ويحوز إعجابهم . . أما نصائح الأهل وإرشادات المعلمين وأوامر ونواهي رجال الدين ، فلا وقع لها في نفسه إلا بالقدر الذي تقبله الصحبة وتسلم به . والميزة الظاهرة في هذه المرحلة هي في خروج الإنسان من نطاق الأنانية وانصرافه عن الاهتمام الشديد بنفسه ، وإقدامه على توسيع دائرته الاجتماعية بعد أن كانت محصورة في بداية المرحلة في أفراد العائلة .

وعلينا في هذه المرحلة أن نحرص كل الحرص على عدم محاربة غريزة الألفة وتوسيع الروابط ؛ فكثيراً ما يعمد الأهل إلى نهي الطفل عن المصاحبة والمخالطة ، بل وكثيراً جداً ما يعاقب الأهل أطفالهم إذا لمحوهم مختلطين مع الغير أو متحدثين إليهم . ولو أدرك مثل هؤلاء القوم ماذا يعدون لأطفالهم الأبرياء بتصرفاتهم هذه ومنعهم عن المعاشرة ، لكفوا في الحال عن الاسترسال في جهالتهم وتعسفهم ، بل ولعاونوا أطفالهم على توسيع مدى المخالطة وزيادة الألفة .

فواجبنا في هذه المرحلة هو العمل على ترقية الغريزة وإنمائها ، وليس على كبتها وتوقيع الحجر على الطفل ، ويجب أن نسعى لتهذيب دافع الألفة بحيث يتمشى مع المستوى الراهن للحياة الاجتماعية وفروض المدنية . فإذا كنا نخشى على الطفل من المعاشرة الضارة أو غير المجدية ، فأمامنا الكثير من النواحي العمرانية النافعة التي تمثل المثل العليا للحياة الاجتماعية . . . أمامنا الألعاب الرياضية المشتركة ، أمامنا الكشافة ، أمامنا فرق التمثيل المدرسية وفرق الموسيقى والفنون الجميلة ، وغير ذلك من النواحي التي تعطي الفرصة للغريزة على التعبير عن نفسها في ثوب جميل وهيئة راقية مقبولة من المجتمع ومقوية لنفسية الطفل .

مرحلة التملك

بعد ذلك ينتقل الطفل إلى المرحلة التى تقابل تلك المرحلة التى بدأ فيها الإنسان الفطرى جمع المقتنيات وحيازة الأملاك .

وهنا يتجه اهتمام البنت إلى حيازة اللعب والعرائس والأشرطة وما إلى ذلك ... ويعود الولد إلى المنزل وجيوبه محشوة بكرات من الزجاج والمطاط والأحجار وخلافها (كالبيلى والزلط ونوى المشمش) وبكثير من الأشياء التافهة ، والتى لاقيمة لها فى نظر الكبار ، ولكنها فى أعين الطفل مقتنيات لها قيمتها ، وهى أعز عليه من المأكل والمشرب ، وهو يحرص عليها حرص المقتر على ماله .

وواجبنا فى هذه المرحلة هو أن لا نقابل تصرفاته هذه بالتهكم والسخرية أو باللعن والسب ، فما أقسى أن تشقى سعيدا وتحرم عليه أسباب السعادة ! وما أظلم أن تحكم على مالك برىء وثرى شريف بالبله والجنون .

إن الواجب يقضى علينا ، والحكمة تتطلب منا ، تهذيب الغرائز وتقويمها بحيث تصبح نافعة ومقبولة . . وهذا لا يتأتى بمقابلتها بالعنف والسخرية أو التحريم ، بل بالعمل على توجيه نفس الغريزة إلى الناحية المثمرة واستنفاد نشاطها فى ناحية مشروعة أو مقبولة .

فلنساعد الطفل فى هذه المرحلة على تقويم وتقوية الغريزة عنده بما هو أجمل من « النوى » وأنفع من « الزلط » ، ولنعينه على تهذيب الغريزة بتوجيه نشاطها إلى نواحى يقدرها المجتمع وتقرها المدنية الحديثة ؛ فهذه

مرحلة من مراحل التكوين التى يجب أن يمر بها الطفل مهذبا و يتخطاها إلى ما بعدها .

وأهم ما يعنينا هو عدم ترك الطفل متشبثاً بهذه المرحلة أو ثابتا فيها ، فكثيراً مايحدث أن يثبت فى إحدى المراحل فينمو ويكبر والغريزة الأصلية باقية معه ، فاذا ثبت الطفل فى هذه المرحلة بالذات كبر وفيه ميول التجميع والتكويم ، وهى ميول فطرية تتطلب التهذيب ، و إلا أقبل صاحبها ، وقد كبر ، على شراء كل مايصادفه وما يستطيع شراءه دون أن يكون فى حاجة حقيقية إلى ما يشتريه ، بل ولأقبل على شراء لعب الأطفال نفسها دون أن يكون أمامه طفل يهديها له ، فهو يندفع إلى شراء كل مايقع تحت نظره ، ويجد فى ذلك لذة كبيرة ، و إذ عجز عن شراء مايصبو اليه أحس بالحزن والألم وتولاه توتر فى الأعصاب وعد نفسه بائسا .

مرحلة الأحلام

يلى المرحلة السالفة مرحلة الأحلام أو مرحلة التطور الخيالى .. وهنا نرى فكر الطفل محلقاً فى عالم الخيال والأوهام والأساطير . فيتراءى له الخيال حقائق والأساطير وقائع تاريخية لانزاع فيها ولا جدل . فيستمع إلى قصص البطولة الخيالية وأعمال الفرسان الوهمية وكأنها حقائق علمية أو حوادث تاريخية . ويقصها بدوره متحمساً ومنتصراً لأبطالها . يسرح بأفكاره فى عالم الجن والعفاريت ويتصور « الغولة » وهى ترد السلام على ملقيه قائلة « لولاسلامك غلب كلامك أكلت لحمك قبل عظامك »

ويتمثل بنت السلطان وابن الملك ، والساحرة وطاقية الإخفاء وخاتم سليمان وغير ذلك من الأوهام ، وكأنها أمور حقيقية ، فيتصور نفسه فى أحد هذه المواقف ، ويتمنى لو أتيح له الحصول على خاتم سليمان هذا أو العثور على طاقية الإخفاء ليفعل كذا وكذا . . فيحيا الطفل بذلك فى عالم من الأحلام والأوهام هو أكثر إغراء وأوسع مجالا من عالم الحقيقة الضيق .

وهذه مرحلة هامة جداً من مراحل التطور العقلى ، إذ يبدأ فيها الذكاء فى النمو والنبوغ فى التكوين ؛ ويلعب فيها الخيال دوراً هاما ، وإذا ما وجه توجيهاً سليما انتهى بنجاح المرء فى حياته العملية . . فهذا الخيال هو العنصر الفعال الأول فى كل ماوصلت إليه البشرية من اختراعات واكتشافات وصناعات وفنون وعلوم وآداب .

فواجبنا فى هذه المرحلة هو العمل على تحويل خيال الطفل إلى الحقائق . وتوسيعه فى نطاق الفروض المعقولة ، فلا نأمره بالكف عن الأوهام والهذيان ، ولا نقره على الاستسلام المطلق للخيال الباطل ، بل علينا أن نشرح له حقائق الحياة ، ونوجه قوى خياله إلى ما هو أجدى وأصلح له بعد أن نجعله يلمس بنفسه الفرق بين الأوهام والحقائق ؛ وبذا نحول بين الطفل وبين ما ينشأ عن الخيال الباطن من أمراض عصبية ، حيث يهرب فى المستقبل من مواجهة الحقائق والتملص من مصاعب الحياة وما تتطلبه من جهد وكفاح ، فيظل عائشاً فى عالم من الخيال الذى لا يمكن تحقيقه .

مرحلة الحب الخيالى

تأتى بعد ذلك مرحلة الحب الخيالى وهى مرحلة لها أهميتها النسبية ، التى تتطلب دقة التصرف وحكمة التوجيه والتهذيب ، وإلا كانت من شر المراحل التى تترك الطفل فى حالة ينبذها المجتمع ويحتقرها الفرد والمجموع .

ففى حوالى سن الرابعة عشرة للذكور والسادسة عشرة للاناث ، يتحول دافع المحبة عن « الشلة » وعن نفس الجنس إلى الجنس المقابل ، فيتودد الولد إلى البنت ويتقرب إليها محاولا إرضاءها واكتساب صداقتها وتقديرها بكل ما يستطيع من حيل ، وترغب البنت فى معاشرة الولد واكتساب محبته لها وإعجابه بها ، فتتبادل بينهما عاطفة الحب فى براءة وطهارة تامة ملؤها الإخلاص والوفاء وصفاء الأغراض ، لولا تلك الإيحاءات الطائشة والأفكار الملوثة التى يقذفهما بها الأهل والمعارف والبيئة ، فيحولون بذلك طهارتهم وبراءتهم إلى الأفكار الخبيثة ، والأعمال غير المشروعة .

وإذا اتجه الأهل فى هذه المرحلة إلى زجر الطفل ومنعه عن مخالطة الجنس المقابل ، وكبتوا بذلك غريزة الحب الجنسى ، تحول دافع الحب — إذ ذاك — إلى نواحٍ أخرى ورجع القهقرى إلى المراحل الأولى ، فيعود الطفل مثلا إلى مرحلة اللواط أو السحاق ، أو يتخذ الدافع هيئة انقلاب جنسى أو انحراف غير طبيعى ، فيعود الطفل إلى دور الاستمناء ، ويلجأ إلى جلد عميرة (العادة السرية) أو يتخذ أى ناحية أخرى من نواحى الانحرافات الجنسية المعروفة .

فواجبنا فى هذه المرحلة هو الكف عن محاربة العلاقات بين الجنسين والكف عن توجيه أفكار وإيحاءات السوء إليهما ، بل يجب علينا أن نساعدهما على إقامة روابط عنصرها الإخلاص والوفاء وتبادل الخدم والتفانى فى نكران الذات ... وواجبنا أيضاً أن نمنع هؤلاء المتهجمين الجهلة المنحطى الأخلاق والنزعات من التصدى للأبرياء الحالمين فى حب متقدس ، الفرحين بعاطفة قوية جميلة نبيلة .

وإذا كانت هذه الحلول تبدو فى أعين البعض متعارضة مع تقاليد الشرق أو الأمم الشرقية ، فليدرس هذا البعض ما سببته لنا هذه التقاليد البالية من محن وبلايا ، وليكن أميناً فى دراسته عادلا فى حكمه منزها عن التعصب الأعمى .

إن فصل الجنسين عن بعضهما وتحريم المعاشرة البريئة بينهما وتبادل العواطف السامية ، كان دائما مشبعا بعنصر الخوف والفساد والمفاسد . فكان هذا التحريم فى نفسه إيحاء قويا وعاملا فعالا فى تحويل أفكار الطفل النامى إلى موضع الخوف وأساس التحريم نفسه ، فشب الطفل لا يعرف فى الحب غير المتعة الجنسية ، فاتجه إليها بكل قواه ، وانصرف إليها أكثر من انصرافه لغيرها ، فإذا خاب فى سعيه شعر بمرارة الفشل . ليس فى ناحية الحب فحسب ، بل فى كل نواحى الحياة . وإذا فاز بها تضعضعت قوى العاطفة عنده وانحصر ظهورها فى فترات متقطعة هى فترات الهياج الجنسى ، وقضى بقية وقته ضعيف الهمة فاتر النفس والعقل ، كثير القلق والاضطراب ، لا يجد فى نفسه دافعاً يحبب إليه الحياة .

إن الفساد لا يمكن أن يزول من المجتمع إلا إذا زال أولاً من الأفكار . ولن يزول من الأفكار إلا إذا توقفنا عن الإيماء إليه والتحدث عنه .

ولو أننا استعضنا عن الكلام فى الفساد وإصدار الأوامر والنواهى القاضية بتحريم الفساد ، بالتحدث عن الفضائل دون ذكر الرذائل ، وبنشر المحبة والوفاء والإخلاص ، لقضينا تدريجيا على عناصر الفساد نفسها .

مرحلة الغيرية

وآخر مراحل التطور الميولى للانسان هى مرحلة الغيرية ، حيث تتحول أفكار الطفل فى الثامنة عشرة إلى تعميم عاطفة المحبة والخروج بها من حيز روابط الألفة المحدودة والقاصرة على إشباع ميوله الخاصة ، إلى بسطها على المجتمع أو توزيع نشاطها على الحياة الاجتماعية ، فيسيطر على الطفل فى هذه المرحلة خيال البطولة وتضحية النفس ونكران الذات . ويشترك فى الأبحاث الاجتماعية والشئون السياسية ، ويساهم فى الأعمال المجردة من الأنانية المتشبعة بحب مشاركة المجتمع فى آرائه وعاداته ومتاعبه ، ملبيا بذلك دعوة أسمى مراحل التطور الخلقى الداعية إلى محبة المجتمع وتعميم الإخاء وتوسيع دائرة الأصدقاء والمعارف والمساهمة فى أمورهم .

وهذه هى خاتمة المراحل التى يجب أن نقود الطفل إليها ، ونتدرج به إلى إبرازها وإنمائها فى هيئة متزنة ونافعة ومنظمة .

نقط التوجيـــه

(١) حذار من العمل على كبت نزعات الطفل فى أى مرحلة من مراحل التطور السالفة الذكر ، فكل مرحلة منها هى تعبير طبيعى لماهية النزعة الفطرية الأصلية التى تميز بها كل جيل من الأجيال السالفة . ولا يمكن أن يؤدى كبتها إلى إخماد قوتها أو تهذيبها أو التسامى بها ، ولكنه يزيدها شدة وخطورة ، وهنا أساس العقد العصبية أو النفسية .

فاعمل على تقويم النزعات وفقا لمطالب المجتمع ، وتجنب كبتها وإلا انفجرت وأهلكت صاحبها .

(٢) بين للطفل فى لين وهواده ، السبب فى كل أمر توجهه إليه أو طلب تطلبه منه . فالأطفال مرنة الأخلاق وسريعة التكيف والتشكل ، وسرعان ما تجاوب كل دعوة إلى التعقل والتمييز والعدالة والتكيف وفقا للحاجة ، إذا ما أفصحنا لهم عن مغزى أوامرنا وأفضليتها .. ولكنهم يتنكرون للقسوة ويتحفزون للنضال والمقاومة والعناد إذا لمسوا فى مطالبنا روح التعسف أو سوء العدالة أو تقلب الآراء أو تناقض التصرفات والأقوال ، فالطفل يدرك ويشعر آليا بكل هذا .

(٣) لا تنهر الطفل ولا ترغمه على تنفيذ إرادتك لمجرد أنك ولى أمره ، أو لأنك أكبر منه سنا ، أو لأنك تستطيع ضربه وإنزال العقاب به إذا لم يذعن لمشيئتك ؛ فهذه وسيلة تعسفية أساسها القوة الطائشة والاستبداد الهمجى الذى لا يليق بأناس نضجت عقولهم وقوم ارتقت

غرائزهم ودوافعهم ، علاوة على ماها من عواقب وخيمة على نفس الطفل .

(٤) قدر قوة الإيحاء حق قدرها ، واذكر أن الطفل يعمل ويسير ويفكر ويتصرف بقوة العقل الباطن إلى حد كبير ، فالطفل يظل حتى السنة السادسة من عمره معتمداً فى أعماله وتصرفاته على العقل الباطن إذ يكون المخ فى دور التكوين . واذكر أن كل المؤثرات والعواطف المقررة والمسيرة لمستقبله تختزن فى العقل الباطن ، وتتجمع إبان طفولته الأولى .. ولذا ينبغى عليك أن لا تسمع الطفل كلمة أو عبارة لا تتمناها له ولا ترجو تحقيقها فيه أو أن تغرس فى وعيه ومداركه . . بل عليك أن تحرص كل الحرص على انتقاء الألفاظ والعبارات القوية السليمة التى ستكون وعيه وتصبح جزءا من شعوره الذاتى .

(٥) صور لابنك الحياة فى أجمل وأقوى صورة تستطيع تصويرها . وأكد له دائما بأنه كفء وقدير ، وأنه سيصل بقوة ذكائه البادية ونشاطه الظاهر إلى أسمى المراكز ، على شرط أن لا يركن إلى الكسل أو الوهم الباطل .

(٦) لا تفزع الطفل بالتهديدات المروعة ، ولا ترعبه بعبارات التخويف الشائعة بين طبقة الجهلاء ، ولا توعده بالنار وعذاب الجحيم . فلقد أدت هذه الإيحاءات اللعينة إلى متاعب الإنسانية وشقائها أكثر مما أدت إليه جميع عوامل الحياة وتجاربها المتنوعة .

واذكر أن تقويم الأخلاق وتهذيب الطباع لا يمكن أن يتم بالوعيد والتهديد والإرهاب ، وأن الوسيلة المثلى والوحيدة لتهذيب الطباع أو تعديلها هى الحكمة والصبر والتسامى .

ولقد مرت على وعلى جميع سيكولوجيي العالم حالات عديدة كان أصحابها فريسة الأمراض العصبية الخطيرة ، وكانوا من ضحايا التهديد والإرهاب والوعيد ، فصاروا مجرمين أو محتالين أو سارقين أو خائبين بحكم « عقدة الخوف » التي عقدها الأهل أو جهلة المعلمين أو الجهلة من رجال الدين في نفوسهم فنموا وهي متأصلة في عقلهم الباطن . . . والحق أنك لو كويت وجه الطفل بسفود (سيخ) محمي عقاباً له على خطأ ارتكبه أو زلة وقع فيها ، لكان ذلك مع وحشيته أخف أثراً وأهون عاقبة من دس سموم التهديد والوعيد والإرهاب في نفس الطفل البريئة .

(٧) لا تحاول أن تسلب الطفل قوة إرادته ، فتحطيم إرادة الطفل هو بمثابة تهشيم رأسه ، فبارك في الطفل قوة إرادته لأنها دليل القوة التي تبعث على الأمل في مستقبل باهر له .

وكل ما عليك هو توجيه هذه الإرادة وتشجيعها ، فتكون له حجر زاوية الحياة المقبلة أو المقبل هو عليها .

(٨) شجع في الطفل قوة الخيال وأمده بالمواد المنمية والمهذبة لهذا الخيال والمشبعة بعناصر البطولة الصادقة والعظمة الحقيقية المجردة من عناصر الوهم والغرور والخوف والغيرة والحسد والكراهية .

(٩) حاول التغلب على عادات وطباع الطفل الذميمة بتحويل انتباهه ونشاطه إلى النواحي الجميلة المحبوبة ، ولا تغال في وصف العادات السلبية البغيضة ، بل بين له أفضلية ونواحي جمال العادات الإيجابية الحميدة التي توجهه إليها .

وفي استطاعة كل امرئ أن يستغل قوى الإيحاء مع طفله في وقت

النماس ، ففى هـذه الحالة يكون للايحاء أثر فعال وقوة نفاذة إلى العقل الباطن . فيمكن أن يوحى إليه فى نبرات واضحة وهادئة بكل ما يريده منه ، فيقول له مثلا بأنه سيعمل كذا وكذا من العادات الجميلة والتوجيهات المنشودة ، أو التى تقابل النواحى والاتجاهات المراد التخلص منها أو الإقلاع عنها .

ويلاحظ أن تكون الإيحاءات دائماً فى صيغة إيجابية صرفة ، فلا تذكر الأمور التى يراد إبعادها .

(١٠) لا تتحدث ولا تتناقش فى موضوعات المرض أو الضعف أو الفقر أو العوز أو الحظ العاثر أو الموت أمام الطفل . بل أنكر هـذه الأمور السلبية عليه واتركه ينمو مطمئناً غير مدلل ودعه ينطلق إلى النزهات الخلوية ، ويلعب فى كل الأجواء . تحت الشمس وتحت المطر . اتركه يعدو ويتسابق ويتسلق الحوائط والأشجار ، ويقفز ويلعب ويقوم بالحركات التى تتطلب مجهوداً جسمانياً وعقلياً ، دون أن تطلب إليه الكف أو السكون بداعى التعب أو بحجة الحوادث والمرض .

(١١) اجعل من ابنك رفيقاً جديراً بثقتك ، وتبادل معه الآراء . وحدثه فى معضلات الحياة وأسرارها وخفايا المسائل العمرانية . ولا تخجله ولا تصده . واشرح له أصل ومغزى ووظائف الحياة الجنسية ، وبين له كيف أنها متممة لرابطة الزواج المقدسة ، وكيف أنها خصصت للتناسل وحفظ النوع . وتكلم عن أعضاء التناسل كما تتكلم عن اليد والرأس .

(١٢) لا تلب لطفلك مطلباً يطلبه بالصراخ والعويل إطلاقا . وسنزيد هذه النقطة إيضاحا فى باب التحليل النفسانى .